بسم الله الرحمن الرحيم

مُنتدَى الرِواية

المنصة الرقمية لمناقشة ومدارسة الروايات السودانية

الندوة رقم (٦)

رواية (روحْسَد) للروائي محمد الطيب

السبت ٨/ ٨/ ٢٠٢٠م

«أوراق وتعقيبات ومداخلات الندوة»

قراءة نقدية: زياد محمد مبارك

إضاءة منطقة اللاوعي من خلال السردية الموازية للمتن السردي (روحْسَد)

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، مساء الخير الحضور الكريم أمسية طيبة لكم. وكل عام وأنتم بخير وصحة وعافية، أعاد الله عليكم الأعياد بالخير والأمنيات المحققة.

جذب اللاوعي اهتماماً كبيراً منذ أن أسس سيغموند فرويد نظريته عن اللاوعي كأساس يرتكز عليه الاشتغال في الحقل الأدبي مبالغاً في ذلك مما دفع بلاحقيه إلى الاستدراك عليه بتنظير عن الموضعة المناسبة للاوعي في تحليل النص الأدبي. ومن هؤلاء جاك لاكان الذي أفاد من نظريات العالم اللغوي السويسري دي سوسير الذي يعد مؤسساً لعلم اللغة الحديث وأول من أسس المدرسة البنيوية في علم اللسانيات. فأضاف لاكان الدرس السيميائي للدال والمدلول في تحليل النص. وأضاف كارل يونغ رفيق فرويد اللاوعي الجمعي في نظرية التحليل النفسي الأدبي نافياً ما ذهب إليه فرويد من حصر للفن والإبداع في اللاوعي الفردي الممثل لأحد أضلاع الجهاز النفسي بدون أي ضمٍّ لمؤثرات أخرى في العمل الإبداعي. وإن كان فرويد قد صبّ نظريته لتؤصل للبحث في لاوعي المؤلف ومنطقه اللاشعوري كحالة عصابية تتمظهر في الفن والإبداع الكتابي. لكن تماشت مدرسة التحليل النفسي الأدبي بعد ذلك لتفسير وفحص مكنونات اللاوعي للشخصيات الفنية وللمظاهر، ودراسة سيكولوجية الإبداع، والظواهر الفنية والمعنوية مثل الرمز والأسطورة وغير ذلك.

ويمكن التعبير عن الاقتران بين التحليل النفسي والأدب بما عبّر به د. محمد عيسى في بحثه (القراءة النفسية للنص الأدبي العربي): «إن العلاقة بين التحليل النفسي والأدب علاقة عضوية، باعتبار أن التحليل النفسي للأدب يكشف عن اللاوعي في الأخير، وأن الأدب يكشف عن المكنونات النفسية، وكلاهما يفيد من الآخر، ويسهم في فهم العلاقات الناشئة بينهما منذ لحظة الإبداع»١.

وبمباشرة أكثر كما عبّر روباك: «أن النفس والأدب يتناولان موضوعات واحدة وهي الخيال والأفكار والعواطف والمشاعر وما شابه ذلك» ٢.

في المتن السردي (روحْسَد) وفي السردية الموازية/ النص داخل النص: (طين لازب). نجد أن العنوان الأول (روحْسَد) بنحته اللغوي يلقي بظله على (خيري) الروائي الذي يجنح للخيارات الروحية مقيماً سداً بين احتياجات وغرائز الجسد. وهذا ما يعرف بالكبت في النظرية التي أسس لها فرويد. بينما في السردية الموازية ذات السبعة فصول يلقي العنوان بإسقاطه الدلالي على (الجسد) ورغم أن الوجه الآخر لخيري، هذه الشخصية الكامنة في السردية بدون اسم، لم تلجأ إلى الإشباع الغريزي لكنها انتهجت فلسفة ونهجاً حياتياً أشبه بحالة الانجذاب الروحاني المترفع عن ملذات الدنيا وملاهيها.

تتساوق السردية الموازية (طين لازب) مسايرةً لأحداث بطل الرواية خيري الروائي الشهير، كمسودة روائية تتابعت فصولها السبعة عن شخصية متشرد لم يذكر اسمه، تدور في خواطره شخصية لحبيبة يستدعي أحاديثها وذكرياتها بما يحيل إلى أن تأثره بهذه النوستالجيا هو سبب في حالته التي اختارها. وهذه الحبيبة أيضاً وردت بدون اسم. ثم الشخصية الثالثة في السردية، صالح صاحب المطعم المحسن. ليكشف آخر الرواية عن أن سردية (طين لازب) ما هي إلا إضاءة للاوعي خيري تلك المنطقة اللاشعورية أو المستوى النفسي الذي يشكل الوعي والشعور والسلوك.

وهنا؛ يضع المؤلف محمد الطيب محاكاة للاوعي خيري في مفارقة لا تدع مهمة البحث في المكنون المبطن في اللاوعي للنقد النفسي، أو للمتلقي، بل يضع هذه المحاكاة بصورة لا محايثة، ولا سياقية، أي تبدو ذات سياق بمعزل عن مجرى السياق في المتن السردي وإنما هي داخله، تقرأ بصورة موازية للوعي كلاوعي

غير معلن عنه، لخيري كما يراه الآخر في المتن السردي فالسرد عنه جاء عنه بضمائر المتكلمين، وكما يرى نفسه في اتصاله بلاوعيه الذي سطّره في سردية (طين لازب) التي بدأ في كتابتها بعد أن التقى بزميله القديم سليم الصوفي وهو يبحث عن شخصية واقعية ملهمة لرواية جديدة، سليم محكوم عليه بالسجن في قضية قتل أمه، وهذا ما يمثل المثير النفسي الذي يطلق في خيري رغبته المكبوتة من عقالها ليتحقق تواصله مع لاوعيه، لتعلّق قضية قتل الأم بعقدة ذنب مركونة في نفس خيري حيث كمن في نفسه منذ الصغر احساسه بأنه المتسبب في فقدها لحياتها. في المتن السردي يزور خيري قبرها باستمرار معبراً عن اعتذاره، وهذا مظهر لسلوك اكتئابي في الوصف الحديث لحالة النوستالجيا المرضية.

يلعب سليم الصوفي دوراً أشبه بالمحلل أو الطبيب النفسي في تصويره الذهني الذي تحتفظ به كلاسيكيات العيادة النفسية حيث يتمدد المريض أمام المحلل النفسي على أريكة لينثر ما يثقل نفسه من مواقف موغلة في مطالع الحياة لم تلبث أن توطنت في النفس وأنشبت بما تركته من وجدانيات سلبية كعقد ملازمة مؤثرة ظاهرياً في السلوك بينما هي مغروسة في منطقة باطنية تمثل اللاوعي أو اللاشعور. لكن في المتن السردي يحدث انقلاب للحالة فبدلاً من أن يؤدي خيري دور الراصد لحكايات سليم الصوفي، يتصيّر خيري هو الحكاء المنهار أمام سليم جراء اتصاله بعقدتين أساسيتين في نفسه، وهما: عقدة الذنب نحو أمه، وعقدة تأنيب الضمير نحو زينب حبيبته في الجامعة وهي تمثل نقطة التقاء أخرى مع سليم الصوفي.

وهذه الإثارة النفسية التي نشأت من لقاءات خيري مع سليم الصوفي في مكتب مدير السجن، ترافق معها إثارة حاثة بصورة حادة حين برزت ابنة حبيبته الهاربة التي تدعى رونق. ويمكن أن نقول أن السردية الموازية (طين لازب) هي قراءة لتفاعلات خيري النفسية أمام هذين الأثرين.

ثمة إشارة للنهاية المفتوحة للرواية، ويمكن أن نقول (لماذا النهاية المفتوحة؟). النهايات المفتوحة تترك للقارئ مهمة أن يتمدد بخياله لإغلاق النص وهي خانة شراكة مع الكاتب. في (روحْسَد) انتهت الرواية بآخر فصل من السردية الموازية، الفصل السابع. وفيه نجد المتشرد، الوجه أو الشخصية الأخرى من خيري وقد اختار الاختباء في الماضي بشكل اختياري، وهذا واضح في التعبير غير الموارب لبطل السردية، بقوله: (دفعت الباب وولجت عمق الذاكرة بعزم، صفعني هدوء الموتى الذي يغلف المكان، توجّست ولكني لم أتراجع، دفعت الباب الداخلي فأصدر صريراً عالياً، الصالة كانت بذات غبارها وعبق ذكرياتها). منتهياً به الحال بالانزواء عن الشارع الذي يرمز للواقع. إلى مسكن قديم مهجور يمثل الذاكرة كقيد اختياري بصورة واعية ولكنه في الحقيقة ليس باختيار واعي إلا في المتخيل السردي لسردية (طين لازب): (تُرى كم مر من الزمن؟ ما زال عم صالح يأتي كل يوم باحثاً عني، يهتف باسمي من وراء السور العالي ولكني أتجاهل نداءه، لا جدوى مما وراء السور، الحقيقة تجول في هذا البيت وما وراءها محض خيال)٣.

وللمقاربة، فخيري في المتن السردي اختياره لم يكن بعيداً عن الانكفاء على الماضي، وهذه نقطة التقاء في الخاتمتين/ قصة خيري وروايته. فآخر مشهد عن خيري في فصل رونق يصور خيري وهو يلملم أجزاء صورة زينب التي مزقتها ابنتها رونق، ليترك خيري رونق تغادر بدون أن يرفع رأسه عن أجزاء الصورة التي يحاول أن يعيد تجميعها من جديد. تروي رونق عن أثر ذلك عليه: (كان ينوح مثل ثكلى فقدت طفلها قبل لحظات، نظر إليّ، عيناه بحيرتان من العذاب)٤.

قدم محمد الطيب نصاً داخل النص، يبدو غير متعلق بسياق الأحداث في المتن السردي، ولكن يكتشف القارئ في النهاية أن

النص الداخلي هو الأعماق غير المنظورة في شخصية خيري، التي تحتشد فيها أحلامه وذكرياته ورغباته ودوافعه. وفي النهايتين أُغلق النصان على نهاية فلسفية أشبه بالنهاية المفتوحة على انكفاء خيري على أعماقه وأطلال ماضيه في اللاوعي؛ المنطقة التي لا ينتهي البحث الإنساني في مكنوناتها.

مصادر:

١- بحث (القراءة النفسية للنص الأدبي العربي)، د. محمد عيسى - قسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة البعث. ص٢١.

٢ - التفسير النفسي للأدب، د. عز الدين إسماعيل، ص١٢.

٣ - رواية روحسد، ص٢٢٢.

٤ - رواية روحسد، ص٢١٢.